مقدمة

تكمن اهمية هذا البحث فى انه يعالج بالدراسة والتحليل فترة زمنية من اهم فترات التاريخ المصرى الحديث فى افريقيا فى القرن التاسع عشر ، وعلى وجه التحديد فى الفترة ما بين ١٨٢٠ ، ١٨٩٩ ، فدراسة هذه الفترة بالذات تلقى الضوء على الجوانب الحضـــارية الهامة التى قامت بها مصر فى افريقيا فى خلال القرن التاسع عشر ، سواء كان ذلك فى النواحى الاقتصادية او الاجتماعية أو العمرانية او فى مجال الكشوف الجغرافية أو فى غيرها من النواحى الاخرى ، زيادة على ذلك فان دراستها تبرز لنا دور مصر الايجابى فى افريقيا فى هذه الحقبـــة من الزمن فمن الواضح ان دورها لم يكن دورا اســـتعماريا كما يزعم البعض ، بل كان دورا حضاريا الى درجة كبيرة .

وقد زاد من أهمية هذه الدراسة توافر مصادرها الاساسية ، كالوثائق والمخطوطات والتقارير والسجلات وكذلك توافر مصادرها غير الأســـاسية ، التى تتمثل فى المراجع العربية والأجنبية والدوريات .

ولكن على الرغم من أهمية هذه الفترة ، وعلى الرغم من توافر مصادرها الا ان الباحثين والمتخصصين لم يتناولوها ، بالبحث والدراســـة الكافية ، ويرجع ذلك اما لاعتقادهم فى عدم توفر المادة اللازمة لدراسة هذا الموضوع أو لاعتقادهم فى صعوبة دراسة هذه الفترة التاريخية الهامة وذلك لطول مدتها الزمنية ، ولكن عندما راودتنى فكرة هذا الموضوع اقدمت عليه ولم اتردد فى تناوله بالدراسة ، اعتقادا أن دراسته ، ربما تزود المكتبة العربية باضافة علمية جديدة ، أو ربما تمكننى من ابراز دور مصر الايجابى فى افريقيـــا ، حتى يفيها العالم بما تستحقه من تقدير .

لقد واجهت بعض المصـــاعب اثنـــاء جمع مادة هذا البحث ، وخاصة ما واجهته منها فى دار الوثائق التاريخية ، فكثير من الوثائق هناك ، غير منظم ولا مرتب ، بل والبعض منها مبتور أيضا .

الى جانب هذا فقد واجهت مشكلة النقص فى بعض المراجع الهامة التى لا يتوفر منها الا العدد اليسير ، ولو تصادف ووجد البعض منها فى احدى المكتبات العامة فاما أن يكون معارا للباحثين والأساتذة ، وأما أن يكون موجودا ولكن غير مسموح بأعارته لكونه من الكتب النادرة ، وترجع ندرته الى انه طبع فى القرن الماضى .

وبعد أن انتهيت من جمع مادة هذا البحث قمت بتصنيفه وفق المنهج العلمى ، مراعيا فى ذلك التسلسل التاريخى للاحداث ووحدة الموضوع حتى يتيسر لى كتابته . هذا عن أهمية الدراسة والصعوبات التى واجهتنى خلال فترة البحث .

واما عن التحديد الجغرافى لموضوع البحث ، فهو يهتم على وجه التحديد بدراسة بعض المناطق الافريقية بصفة عامة والسودان بصفة خاصة .

فبالنسبة لأفريقيا فانها تختلف عن غيرها من القارات من حيث ظروفها الطبيعية والمناخية ، وكذلك من حيث موقعها الجغرافى ، فهى تقع بين خطى عرض ٣٧° شمال خط الاستواء ، وبين خط عرض ٣٥° جنوب خط الاستواء ، ويمر من خلالهما أيضا خطوط العرض الرئيسية الممثلة فى مدار السرطان ومدار الجدى وخط الاستواء ، وقد كان لمرور هذه الخطوط العرضية الرئيسية اثره المباشر على جغرافية افريقية من حيث تباين مناخها .

وقد ادى هذا التباين فى المناخ الى التنوع فى كثرة غلاتها الزراعية ، وقد ضاعف من هذه الغلات اتساع مساحة افريقيا التى تبلغ حوالى ١١ر٧٠٠ر٠٠٠ (احد عشر مليونا وسبعمائة الف من الأميال المربعة) ، فهى تعتبر بذلك ثانى قارات العالم من حيث المساحة بعد قارة آسيا ، كما انها محاطة بحدود طبيعية تفصلها عن باقى القارات ، فيحدها من الشرق البحر الأحمر والمحيط الهندى ، ويحدها من الغرب المحيط الأطلسى الذى يفصلها عن الأمريكتين ، ويحدها من الشمال البحر المتوسط ، ويحدها من الجنوب نقطة التقاء المحيط الأطلسى بالمحيط الهندى . وقد وهبها الله عددا من الانهار ، منها نهر النيل والكنغو والنيجر والسنغال والزمبيزى والأورانج ، وغيرها من الانهار الصغيرة والأخوار ، ولقد ساعدت كثرة الامطار التى تهطل على المنطقة الاستوائية لهذه القارة على وجود مساحات شاسعة من الغابات

الاستوائية ، التى تكثر بصفة خاصة فى غرب القارة الافريقية ، وحوض الكونغو ، وفى منطقة خط الاستواء ، اما فيما عدا ذلك فيقل وجود الغابات تدريجيا نظرا لقلة الامطار ، وتحل محلها حشائش السافانا التى يندر وجودها بالتالى ، كلما اقتربنا من الصحراء الكبرى الواقعة الى الشمال من خط الاستواء ، والتى تشغل جزءا كبيرا من مساحة القارة الافريقية . والى جانب نمو الغابات فى افريقيا ، تنمو بها ايضا اشجار المطاط والكاكاو ونخيل الزيت والبن والموز ، وينمو بها ايضا نباتات القصب والقطن والسمسم والذرة العويجةوالدخنوالفول السودانى (١) . وزيادة على ذلك فان هذه القارة غنية بثروتها الحيوانية الممثلة فى الابقار والجاموس والابل والغنم والماعز هذا ، الى جانب وفرة الحيوانات البرية الاخرى العديدة الأنواع ، التى تمثل فى الوقت الحاضر اهم المقومات السياحية التى تجذب الكثير من سياح العالم لزيارة بعض المناطق الافريقية . ولكن على الرغم من وجود هذه الثروات الضخمة فى افريقيا ، الا ان حكامها لم يستغلوها لصالح شعوبهم ، ويرجع السبب فى ذلك الى انتشار الجهل والتخلف والعزلة ، التى حالت دون اتصال افريقيا بالعالم الخارجى،بالاضافة الى قلة رؤوس الاموال وعدم توفر الخبرة الفنية ، والايدى العاملة المدربة .

وتتمثل عوامل عزلة افريقيا فى كثرة الغابات الاستوائية والحرارة الشديدة والامطار الغزيرة،والحيوانات المفترسة والامراض الفتاكة والصحراء الشاسعة ، بالاضافة الى عدم صلاحية شواطئها الغربية لرسو سفن الرحالة والمغامرين ، وذلك راجع الى التكوين الطبيعى للساحل الغربى لأفريقيا والذى يتميز بعدم تعاريجه ، فبينما يرتفع هذا الشاطىء فى مكان ، نجده ينخفض فى مكان آخر ، بحيث تغمره المياه والأمواج ، زيادة على شدة حركة المد والجزر ، بالاضافة الى ذلك فان هذا الساحل يحوى كثيراً من الالسنة الرملية والطمية التى توجد بصفة خاصة فى مصبات الانهار ، وقد

---

(١) نبيلة عبد الهادى ، وفؤاد مصطفى محمود : الانتاج الافريقى والتجارة الخارجية . ص . ص ٣ — ٤ .

اتخذ تجار الرقيق من الشاطىء الغربى لافريقيا نقط وثوب لصيد الرقيق . الأســـود (٢) .

لم تكن سواحل افريقيا كلها غير صالحة لرسو السـفن مثل السـاحل الغربى . بل نجد ان بقية سواحلها كانت صالحة لرسو السفن ، ليس فقط فى القـرن المـاضى فحسب ، بل من قبل ذلك بكثير ، والدليل على ذلك ما اشتهرت به الموانى الشمالية والشرقية لافريقيا ، وقد زادت اهمية هذه الموانى بعد فتح قناة السويس للملاحة العالمية أى منذ عام ١٨٦٩ ، التى كان لفتحها اثره الفعال فى المساهمة فى تشجيع حركة التجارة العالمية ، بين اوروبا من ناحية ، وافريقيا وآسيا من ناحية أخرى . (٣)

لم تكن هذه التجارة قاصرة على الغلات الزراعية والمعادن فحسب ، بل شملت ايضا تجارة الرقيق الأسود التى انتشرت فى أجزاء كثيرة من افريقيا ، خاصة بعد أن خفت حدة الحرب بين الدول ، فقد كانت هـذه الحروب بمثابة مصدر من مصادر تجارة الرقيق فى العالم ، ولكن بمجرد الانتهاء من هذه الحروب ، بدأ النخاسة فى البحث عن مصدر آخر ، يحصلون منه على الرقيق، فلم يجدوا أمامهم الا افريقيا ، فذهبوا اليها بحجة الاتجار فى العاج وريش النعام ، وهناك عملوا ايضا فى الاتجار بالرقيق الأسود بل وعلى أوسع نطاق ، مستخدمين فى ذلك ابشع الطرق غير الانسانية فى اصطيادهم . (٤) هذا عن افريقيـــا .

وأما عن السودان ، فهو الامتداد الطبيعى لمصر حيث كانت له علاقات قديمة معها ترتكز على دعائم قوية ، تتمثل فى وحدة الأرض والعرف والدين واللغة والمصلحة والمصير المشترك (٥) لذلك نجد أن السودان كان يتأثر بما تتأثر به مصر من تيارات سياسية أو ثقافية أو اجتماعية ، فعنـد ما دخلت المسيحية ومن بعدها الاسلام الى مصر ، دخلا بالتالى الى السودان .

---

(٢) Harrison Church, R.G. : West Africa. pp. 10-12.

(٣) Asfour, M.M. Dr. : The ports of Redsea. p. 221.

(٤) دكتور / فيليب رفلة : الجغرافيا السياسية لأفريقيا ص د .

(٥) د / محمد محمود الصـياد ، ومحمد عبد الغنى سـعودى : السـودان ، ص ٥ .

يتميز السودان بكثرة أراضيه الخصبة وباتساع مساحته التى تبلغ نحو مايون ميل مربع ، فضلا عن ذلك فانه يتميز بمرور النيل وروافده المختلفة من خلاله والتى تعمل مجتمعة على خلق بيئة زراعية جيدة (٦) .

ولكن على الرغم من كثرة الثروات الاقتصادية فى السودان خاصة وافريقيا عامة ، الا ان هذه الثروات ظلت دون استغلال من جانب الأفارقة لصالح شعوبهم ، الذين كانوا يعيشون فى ظلام الجهل والتخلف .

وفى اثناء القرن التاسع عشر كانت أوربا تعيش فى ظل ظروف حضارية متقدمة هى الظروف التى خلقت رغبة لدى الأوربيين فى الحصول على المواد الخام اللازمة لمصانعهم كى تواصل استمرارها فى العمل ، كما رغب الأوربيون ايضا فى فتح اسواق جديدة فى افريقيا لتصريف منتجاتهم الصناعية بكافة انواعها .

ونظرا لهذه الاهمية الاقتصادية ، شجعت أوربا بعض الرحالة والمغامرين على الذهاب الى افريقيا ، كى يقوموا بكشف بعض المناطق هناك للوقوف على ما تحويه هذه المناطق من مواد خام ، وكان البعض من هؤلاء الرحالة ينجح فى مهمته ، والبعض الآخر كان يصادفه الفشل ، وكانت المخاطر التى تصادفهم اثناء الرحلة ، ولم تكن الحماية فى بعض البلاد الأفريقية فى ذلك الوقت مكفولة ، لمثل هؤلاء المغامرين وخاصة قبل دخول مصر الى اواسط افريقيا .

كان من هؤلاء الرحالة والمغامرين الطبيب الفرنسى جاك فرنسوا بونسيه Poncet الذى زار الحبشة وسنار فى الفترة ما بين عامى ١٦٩٨ م ١٧٠٠ ؛ والرحالة البافارى كرمب Krump الذى زار سنار فى الفترة ما بين ١٧٠١ — ١٧٠٢ ، ومن بعده زار سنار نائب القنصل الفرنسى بدمياط والمسمى لونواردى رول Le noir du Roule ولكنه قتل عام ١٧٠٥ بمعرفة سلطان سنار ، وبعد ذلك جاء الى افريقيا الرحالة جيمس بروس Bruce

---

(٦) د / جمال الدين الدناصورى : مشروعات التوسع الزراعى فى السودان ، ص ١٥٩ .

الاسكتلندى ، ووليم جيمس براون Browne الانجليزى الجنسية ، والشيخ محمد بن عمر التونسى ، وجون لويس بركار Burckar السويسرى الجنسية .

لقد نشر هؤلاء الرحالة والمكتشفون كل مشاهداتهم عن البلدان التى زاروها مثل الحبشة والسودان ، موضحين فى تقاريرهم جميع أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية (٧) .

كان من نتائج أعمال هؤلاء الرحالة والمغامرين الذين ذهبوا الى افريقيا تشجيع (محمد على) على دخول افريقيا ، هو الأمر الذى بدأ بالفعل منذ عام ١٨٢٠ ، مستندا فى ذلك الى عدة دوافع نجملها على النحو التالى : —

— تدهور الأوضاع فى السودان ، فقد انتشرت الفوضى والاضطرابات السياسية ، وتدهورت الأحوال الزراعية والتجارية مما أدى بأهل السودان الى أن يطلبوا من مصر التدخل ، لكى تقضى على هذه الفوضى المنتشرة فى بلادهم ، وتستبدل هذه الأوضاع بالأمن والنظام والرخاء الاقتصادى (٨) .

— استتباب الأمن فى مصر ، وذلك بعد هزيمة الحملة الانجليزية ، والتخلص من المماليك نهائيا فى مذبحة القلعة منذ عام ١٨١١ م ، بالاضافة الى الانتهاء من الحروب الوهابية التى بدأت فى الفترة ما بين عام ١٨١١ م وحتى عام ١٨١٩ (٩) .

— اقوال رجال القوافل التجارية الذين كانوا يحضرون من السودان الى أسوان ، فقد أكد هؤلاء الرجال لمحمد على ، صحة ماقاله الرحالة والمغامرون فى تقاريرهم ، بل واوضحوا له ايضا الصورة الكاملة عن أحوال هذه البلاد من حيث خصوبة التربة فى السودان ، وبصفة خاصة فى اقليم سنار ، واوضحوا

---

(٧) د / محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان — ص ص ٩ ، ١٠ .

(٨) د/محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن ١٩ ص ص ٧ — ٨ .

(٩) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، ص ١٢٣ .

له ايضا ما تتميز به هذه البلاد من وفرة فى حاصلاتها الزراعية والمعدنية ، والتى يرجح وجودها بوفرة فى جبال كردفان وفى سنار وفازوغلى .

ـ ضعف دولة الفونج ، التى كان لها نفوذ كبير فى الماضى على جميع ممتلكاتها ، ولكن هذا النفوذ بدأ يتضاءل مع بداية القرن التاسع عشر ، وبدأ الصراع يدب بين حكامها على السلطة ، فبعد أن ضعف نفوذ ملك دولة الفونج وتضاءل سلطانه ، تنافس على السلطة وزيران هما الوزير عدلان ، ومنافسه الوزير حسن رجب ، وقد أدى هذا النزاع فيما بينهما الى سفك الدماء وتفاقم الأمور ، التى كان من نتائجها فقدان دولة الفونج (*) لنفوذها على ملحقاتها من جهة الشمال ، فى كل من دنقلة واندامر وشندى ، ومن جهة الشرق فى كل من مواطن قبائل الهدندوة والحلانقة وبنى عامر (١٠) ولم يبقى لها من السيطرة على المشيخات والدويلات الباقية تحت نفوذها الا السلطة الاسمية (١١) ولكى يتاكد محمد على من صحة المعلومات الخاصة بضعف دولة الفونج ارسل من طرفه مندوبا الى سنار ، عاصمة هذه الدولة، كى يقدم بعض الهدايا الى ملكها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كى يقوم بالتجسس على احوال هذه المملكة من حيث القوة والضعف (١٢) .

---

* اسست دولة الفونج الاسلامية فى سنار فى اوائل القرن السادس الميلادى ، على يد ملكها « عمارة د ونقس » وقد بسطت هذه الدولة سيطرتها على النيل الأزرق ، مدة من الزمن تبلغ نحو ثلاثة قرون ، ومدت حدودها نحو الشمال حتى الجندل الثالث ، ووصل سلطانها فى الجنوب حتى فازوغلى، وخضعت لها الأقاليم الشرقية حتى البحر الأحمر ، ومن ناحية الغرب وصلت حدودها الى حدود دارفور الشرقية .

انظر كتاب الدكتور محمد فؤاد شكرى ، الحكم المصرى فى السودان ص١١

(١٠) د/محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، المصدر السابق ص ص ٩ ـ ١٠ ، ١٥ ـ ١٦ .

(١١) د/صلاح الدين الشامى : بورسودان ، ميناء السودان الحديث . ص ١٢٨ .

(١٢) د/مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص ٨٤ .

ـ رغبة محمد على فى القضـــاء على المماليك الذين فروا من مصر فى أعقاب مذبحة القلعة عام ١٨١١م الى صعيد مصر ، ومنه اتجهوا صوب الجنوب الى دنقلة ، وهناك اسسوا دولة صغيرة لهم ، وكونوا أيضا جيشا من السود وسلحوه بالأسلحة التى أخذوها معهم من مصر ، أملا فى استعادة سلطانهم عليها (١٣) وكان هؤلاء المماليك عندما استقروا فى دنقلة استغلوا سكانها أبشع استغلال (١٤) وذلك لأن المماليك تعودوا حياة الترف التى كانوا يعيشونها فى مصر ، والتى كانت قائمة على جمع الضرائب الباهظة ، وعلى أسلوب السلب والنهب لشعوبهم ، فيبدو أنهم مارسوا هذا الأسلوب مع سكان دنقلة الفقراء ، مما جعلهم يضيقون ذرعا بأسلوب المماليك ، وكان محمد على فى نفس الوقت يتابع تحركات المماليك الذين يحاولون تهديد أمن بلاده من جهة الجنوب ، فقرر مطاردتهم والقضاء عليهم (١٥) .

ـ الرغبة فى السيطرة على البحر الأحمر ، لأنه طريق الحجاج الى الأراضى المقدسة ، وطريق التجارة العالمية التى تستأثر بها شركة الهند الشرقية ، وكان محمد على قد أرسل حملة عسكرية الى الجزيرة العربية عام ١٨١١ م بقيادة ابنه أحمد طوسون ، للقضاء على الوهابيين الذين استمرت الحرب معهم حتى عام ١٨١٩م وكان محمد على قد تمكن من بسط نفوذه على الساحل الشرقى للبحر الأحمر رجاء تدخله فى الســـودان فى العام التالى للانتهاء من الحرب الوهابية ، فبعث بحملة أخرى الى السودان ، كانت تحت قيادة ابنه اسماعيل (١٦) ويبدو أن السبب فى أرسال هذه الحملة الى السودان كان لاحكام السيطرة المصرية على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، والتى لم تكتمل الا بعد أن حصل محمد على من السلطان العثمانى على مينائى سواكن ومصوع ، فباســـتلائه على هذين الميناءين تمكنت مصر من احكام سيطرتها على شواطىء البحر الأحمر الشرقية والغربية .

---

(١٣) Holt. P.M. : Amodern History of the Sudan. P. 35.

(١٤) د/عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على .ص١٣٤ .

(١٥) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، المصدر السابق ص١٦٩ .

(١٦) Hill, Richard : Egypt in the Sudan. P. 7.

ـ وكانت هناك رغبة محمد على فى تزويد جيشه بالأعداد اللازمة من السود ، وذلك لما يتميزون به من قوة البنية وحب الطاعة والنظام ، وكان ذلك ايضا بغرض تعويض جيشه عما فقده من جنود فى الحروب التى خاضها ضد المماليك والوهابيين ، وسوف لا يقتصر عمل هؤلاء السود على الالتحاق بالجهادية فحسب ، بل سوف يمارسون ايضا كافة الأعمال الاخرى ، مثل الزراعة والصـــناعة والعمل المنزلى .

ـ وكانت هناك كذلك رغبة محمد على فى التخلص من بقايا جيشه وخاصة من جنود الأرناؤود والدولاة والألبانيين وغيرهم،وكانت هذه العناصر المختلفة التى يتكون منها جيشه ، تمثل عنصر الخطر الذى يتهدد سلطانه فكثيرا ما كان هؤلاء الجنود يثيرون القلاقل والفتن والاضطرابات بين السكان (١٧) . ولذلك قرر محمد على ضرورة التخلص منهم بارسالهم الى السودان .

ـ هذا الى جانب عدم الرغبة فى تجنيد الفلاحين المصريين لا لعدم ـ كفاءتهم ومقدرتهم العسكرية ، ولكن لكى يتفرغوا لفلاحة الأرض ، خاصة لأن الغلات الزراعية فى ذلك الوقت كانت تمثل العنصر الاساسى للاقتصـــاد المصرى (١٨) .

ـ وكانت هناك الرغبة فى الحصول على المعادن التى سمع محمد على ، عن وجودها بوفرة فى السودان ، وكان أكثر هذه المعادن حبا له هو معدن الذهب (١٩) حيث كلف فيما بعد قواته العسكرية بضرورة البحث والتنقيب عنه فى كل مكـــان من بلاد الســـودان .

ـ وكان هناك امر الكشف عن منابع النيل التى ظلت مجهولة رغم المحاولات التى قام بها الرحالة والمغامرون ، وذلك لكشف الغموض عنها (٢٠)

---

(١٧) عبد الرحمن الرافعى ، المصدر السابق ص ٧٧ .

(١٨) د / مكى شبيكة . المصدر السابق ص ٨٤ .

(١٩) Mandour El-Mahdi : Ashort history of the Sudan P. 16.

(٢٠) Ibid. P. 61.

ـ وكان هناك كذلك الرغبة فى تنمية وتنشيط حركة التجارة بين مصر والسودان ، وقد تلاحظ ذلك فى مخاطبة محمد على لحكمدار السودان بقوله :

« يجرى شراء ما يوجد من أصناف الصمغ وسن الفيل وريش النعام على حساب الميرى ، وتدفع أثمانها المستحقة من خزينة سنار » (٢١) .

ولقد أدى اهتمام محمد على بتنشيط حركة التجارة بين مصر والسودان الى زيادة حجمها ، وخاصة بعد أن استتب الأمن فى السودان ، وبالتالى عاد هذا بالرخاء على مواطنى القطرين الشقيقين .

وكانت قوافل التجارة السودانية القادمة الى مصر تسلك عدة طرق لكى تصل الى مصر ، وهذه الطرق كانت على النحو التالى :

طريق النيل ـ كرسكو ، الذى يمر عبر صحراء أبو حمد ، وطريق سواكن ـ بربر ، ، وطريق مصوع ـ كسلا ـ كيرن . وكان لكل من هذه الطرق مميزاته وعيوبه ، فقد تميز الطريق الأول بوفرة مياهه على مدار السنة ، وذلك لمروره بجوار النهر ، بينما تمثلت عيوبه فى طول مسافته التى بلغت حوالى ١٧٥٠ كم تقريبا ، وتميز الثانى بقصر مسافته التى بلغت حوالى ٢٣٠ كم ولكن كان يعيبه نقص المياه فيه . وتميز الثالث بقصر مسافته التى بلغت حوالى ٤٥٠ كم وتميز بوفرة مياهه أيضا ، وتميز الطريق الرابع بقصر مسافته أيضا والتى بلغت حوالى ٦٥٠ كم ووفرة مياهه .

والى جانب هذه الطرق وجد هناك أربع طرق أخرى تربط الخرطوم ببعض البلدان السودانية وهذه الطرق هى : ـ

ـ طريق الخرطوم ـ دارفور .

ـ طريق الخرطوم ـ كردفان .

ـ طريق الخرطوم سنار .

---

(٢١) دفتر رقم ٢٠ معية تركى ، وثيقة ٣٦ فى ٢٨ شوال سنة ١٢٤٠ الموافق ١٨٢٤ م

ـ طريق الخرطوم ـ المنطقة الاستوائية (٢٢) .

لم تستخدم القوافل التجارية القادمة من السودان الى مصر جميع هذه الطرق ولكنها استخدمت فقط طريقين هما : طريق النيل وطريق غرب السودان ، فبالنسبة للطريق الأول ، كانت البضائع التجارية تمر فيه ابتداءا من الخرطوم بواسطة المراكب التى تسع الواحدة منها ٤٠ طن وحتى ابو حمد، ومنها تنقل على ظهور الجمال عبر صحراء العتمور الى كرسكو ، ومنها بالمراكب الى قرية الشلال الأول الواقعة جنوب حلفا (بالقرب من قرية فيلة) ولكن فى حالة ما تكون مياه النهر مرتفعة ، ففى هذه الحالة يمكن للمراكب مواصلة المسير حتى أسوان مباشرة ، واما اذا كانت مياه النهر منخفضة ففى هذه الحالة يصير تفريغ البضائع فى قرية الشلال ، ومنها تنقل على ظهور الجمال الى أسوان ، ومن الأخيرة بالمراكب الى المحروسة (٢٣) .

واما بالنسبة لطريق غرب السودان ، فكانت البضائع تنقل من خلاله ابتداء من دارفور وكردفان على ظهور الجمال الى بلدتى الدبه وهندك ، ومنها يصير شحن البضائع مرة أخرى فى المراكب الى قرية الحفير الواقعة عند الشلال الثالث ومن هذه القرية يصير تحميل البضائع مرة أخرى ، على ظهور الجمال ؛ حتى وادى حلفا ، ومنها بالمراكب عبر النيل الى أسوان فى حالة ما تكون مياه النهر مرتفعة تماما أما اذا كانت المياه منخفضة ، ففى هذه الحالة تنقل على ظهور الجمال الى أسوان ومنها بالمراكب الى القاهرة (٢٤) .

وقد قسمت هذه الدراسة الى ثلاثة أبواب على النحو التالى : ـ

أولا ـ الباب الأول :

يتضمن حجم الوجود المصرى فى افريقيا فى القرن التاسع عشر فى الفترة ما بين ١٨٢٠ ، ١٨٦٣ ، فكان محمد على قد قرر منذ أن دخلت قواته السودان،

---

(٢٢) Report on the Egyptian province of the Sudan Red Sea and Equator. P.P. 155-156.

(٢٣) Ibid. P. 150.

(٢٤) تقرير المسيو فولر والخاص بسكة حديد السودان عام ١٨٧١ م .

أن تظل عند الحدود التى وصلت اليها ، ولم يسمح لها بتخطيها والاستيلاء على بلاد جديدة . ويمكن تعليل ذلك بأن ظروفه وامكانياته لم تساعده على ذلك ، ويتضح ذلك من قوله الى البك الدفتردار ما نصه :

« كذلك كتبنا الى ولدنا ابراهيم باشا والى جده قائلين له ، انه ورد على خاطرنا أن ادارة جهات فى هذه الدرجة من السعة سوف يكون امرا عسيرا، متى نظرنا الى مقدار ما فيها من جنودنا ، وعلى ذلك يتراءى لنا لو اقتصرنا فى الوقت الحاضر على أقاليم الحلفاية وسنار وفازوغلى واكتفينا مؤقتا بالاقامة فى كردفان ، لكان هذا أكثر تمشيا واتفاقا مع مصلحتنا ، فان لزم الذهاب الى دارفور ، بعد مرور مدة من الزمن فعندئذ يتخذ ما تقتضيه الحاجة من الاهمية والاستعداد وأوفدناه (اى ابراهيم) الى تلك الاقطار بصفة ناظرا ، واوصيناه أن يأتى الينا بعد وضع الأمور فى نصابها ، تلك الأمور التى تعد تسويتها امرا خطيرا عظيم الأهمية » (٢٥) .

وبعد أن زار ابراهيم باشا السودان ، ووقف على حقيقة الأمور هناك كتب الى والده الباشا خطابا قال فيه : —

« سيدى ان ماورد على خاطرك فهو الاصابة بعينها ، وانه هو الموافق لمصلحتنا » (٢٦) .

ويمكن تعليل عدم موافقة محمد على ، على زحف قواته فى داخلية الاقاليم السودانية واستيلائها على مناطق أخرى جديدة الى عدة عوامل منها ، اشتراك بقية قواته فى حروب كريت والمورة (٢٧) ويؤكد ذلك ما ذكره الأستاذ عبدالرحمن

---

(٢٥) محفظة ٣ معية سنية ، وثيقة ٢٣ فى ٣ صفر سنة ١٢٣٧ الموافق ١٨٢١ م

(٢٦) نفس المصـــدر .

(٢٧) عندما نشبت الثورة فى جزيرة كريت عام ١٨٢١ عهد السلطان محمود ، الى محمد على باخمادها فاعد الأخير حملة مكونة من ٥٠٠٠ خمسة آلاف جندى ، تحت قيادة حسن باشا ، وقد نزل هؤلاء الجنود المصريين على شاطىء كريت فى يونيو عام ١٨٢٢ ، واستمروا فى محاربة المتمردين حتى عام

الرافعي فى كتابه (عصر محمد على) والذى جاء فيه ما نصه :

« ولما استفحل أمر السفن اليونانية فى البحر ارسل السلطان محمود عام ١٨٢١ م الى محمد على يعهد اليه بتطهير البحر من قرصنة هذه السفن » (٢٨) وربما ان محمد على راى ان نظل قواته فى السودان فى الأماكن التى تم الاستيلاء عليها حتى تستغل ما فيها من موارد اقتصادية لصالح القطرين (مصر والسودان) بالاضافة الى ان قواته كان يمكنها أن تسترد قواها وتعيد تنظيم صفوفها وتستكمل ما ينقصها من اسلحة ومهمات وعتاد وافراد .

وبعد أن أنهى محمد على حروبه الخارجية أمر فى عام ١٨٣٩ قواته الموجودة بالأقاليم السودانية بالتحرك صوب الجنوب ، وذلك لمحاولة الكشف عن منابع النيل ، وضم المنطقة الاستوائية الى السيادة المصرية ، ولم يقتصر تحرك هذه القوات على الجنوب فقط بل أنها تحركت صوب الشرق عام ١٨٤٣ واستولت على القلابات والقضارف والتاكة . واضيف فى عام ١٨٤٥ الى هذه الأقاليم كل من مينائى سواكن ومصوع (٢٩) بعد ان تنازل عنها السلطان العثمانى لمحمد على .

وبذلك اصبح حجم الوجود المصرى فى افريقيا فى عصر محمد على يضم كل من اقليم كردفان فى الغرب وفازوغلى وسنار فى الجنوب ، والقضارف والقلابات والتاكه فى الشرق ، بالاضافة الى مينائى سواكن ومصوع .

= ١٨٢٢ ، ولما استمرت الثورة فى المورة حتى عام ١٨٢٣ وشعر السلطان العثمانى بعجزه فى اخمادها ، اشرك محمد على فى هذه الحرب ، ليحقق بذلك غرضين ، اولهما الاستعانة بالجيش المصرى فى اخماد ثورة المورة ، والثانى صرف محمد على عن المضى فى تنظيم جيشه ومضاعفة قوته ، واصدر اليه فرمانا يخول له ولاية المورة ، وقد تكونت هذه الحملة من ١٧,٠٠٠ سبعة عشر الفا من المشاه ، ٤ بلوكات من المدفعية ، ٧٠٠ من الخيالة ، وبلغ عدد سفن الحملة ٥١ سفينة حربية ، ١٤٦ سفينة نقل ، وقد اقلعت الحملة من الاسكندرية فى شهر يوليو عام ١٨٢٤م . انظر كتاب عبد الرحمن الرافعى « عصر محمد على من ص ٢١٢ — ٢١٦ » .

(٢٨) نفس المصدر ص ٢١٢ .

(٢٩) محفظة ١١١ . سواحل البحر الاحمر وثيقة بدون تاريخ .

وقد قسمت الباب الأول أيضا الى ستة فصول تناولت فى الأول منها موضوع الثروة البشرية والرق فى السودان فى عصر محمد على ، وتحدثت فيه أيضا عن مدى حاجة محمد على الى السود ، وكيفية الحصول عليهم ، سواء أكان ذلك بطريقة الصيد أم الشراء ، وتحدثت أيضا عن طريقة نقل العبيد وكذلك عن كيفية استخداماتهم ، وأخيرا تكلمت عن موقف محمد على من تجارة الرق فى افريقيـــا .

وتناولت فى الفصل الثانى من هذا الباب موضوع الثروة الحيوانية ، ومدى حاجة محمد على اليها ، وتحدثت فيه أيضا عن طريقة الحصول عليها سواء أكان ذلك عن طريق الشراء أم عن طريق الحصول عليها كضرائب عينية ، ثم تناولت مراحل وصولها الى مصر ، وكذلك تحدثت عن استخداماتها ، وأخيرا تكلمت عن الجلود والصـــــوف والعاج .

وتناولت فى الفصل الثالث موضوع المعادن ، فتحدثت عن كيفية التنقيب والحصول عليها ، وكذلك تحدثت عن الوسائل التى استخدمت فى التنقيب عن معدن الحديد والذهب ، سواء أكان ذلك فى جبال كردفان أم دارفور ، أم فى اقليم سنار ، أم فى جبال فازوغلى ، كما تكلمت أيضا عن المدينة التى انشأها محمد على فى منطقة فازوغلى ، التى عرفت باسـمه وكان الغرض من انشائها هو ســـــكنى عمال المناجم .

وتناولت كذلك فى الفصل الرابع الزراعة والغلات الزراعية فى السودان ، فتحدثت عن كيفية النهوض بها ، سواء أكان ذلك عن طريق ارسال عدد من كبار عمال الزراعة فى مصر الى السودان ، أم عن طريق ارسال بذور غلات زراعية لزراعتها فى السودان ، مثل الأرز والقصب ، كما تكلمت عن بعض الغلات التى جلبها محمد على من السودان ، الى مصر ، مثل بذرة القطن والصمغ والسنامكى والنيلة ، والأبنوس والخشب والأقمشة .

وتناولت أيضا فى الفصل الخامس التقدم الحضارى فى السودان الذى تم فى عهد محمد على باشا ، سواء أكان ذلك فى مجال التنظيم الادارى ، الذى أدخل الى السودان لأول مرة والأمن والعمارة ، وحفر الآبار ، والكشف عن منابع النيل .

وتناولت فى الفصل السادس من هذا الباب ، عصر عباس الأول ومحمد سعيد باشا، ودور كل منهما فى أفريقيا ، فمع أن دورهما لم يكن فيه اية اضافة الى الوجود المصرى فى أفريقيا فى هذه الفترة فقد كان لكل منهما بعض الأعمال البارزة ، فنجد مثلا عباس الأول كان يهتم بنشر التعليم فى السودان ، ويتضح ذلك من انشائه لمدرسة الخرطوم التى كانت تعتبر أول مدرسة من نوعها تنشأ فى بلاد السودان ، فقد تقرر انشاؤها منذ عام ١٨٤٩م ونجد أيضا أن محمدا سعيدا باشا قد أصدر عدة قرارات ، كان منها ما هو خاص بتخفيف اعباء الضرائب عن كاهل السكان ، وكان منها ماهو خاص بالعمل على وقف تجارة الرقيق فى السودان ، ولكن يبدو أن هذه الاجراءات لم تحقق الغرض المرجو منها ، وذلك فيما يبدو بسبب قصر مدة حكم سعيد باشا .

ثانيا ــ البــاب الثانى :

ويتضمن حجم الوجود المصرى فى أفريقيا فى الفترة ما بين ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩، وقد اشتمل الوجود المصرى فى هذه الفترة على كل بلاد السودان بما فى ذلك دارفور ، ومديرية بحر الغزال والمديرية الاستوائية والسواحل الغربية للبحر الأحمر ولكن اسماعيل لم يكتف بكل هذه المساحات بل حاول من جانبه أن يمد نفوذه الى شرق أفريقيا ، ولكن بريطانيا لم تمكنه من تحقيق ذلك ، فاضطر الى سحب قواته الى رأس حافون ، واكتفى بالمنطقة الواقعة الى الجنوب من خليج عدن أو (الصومال الشمالى) .

وقد قسمت هذا الباب الى سبعة فصول ، الأول منها ويحمل رقم الفصل السابع والذى تناولت فيه موضوع الثروة البشرية والغاء الرق ، فقد تحدثت عن دور مصر فى مقاومة تجارة الرق بكافة السبل المتاحة ، وتحدثت أيضا عن كيفية استخدام العبيد وعن كيفية الحصول عليهم ، كما تحدثت عن معاهدة الرق المبرمة بين مصر وبريطانيا العظمى فى عام ١٨٧٧ م .

وتناولت فى الفصل الثامن من هذا الباب ، الزراعة والغلات الزراعية ، وأوضحت اهتمام مصر على وجه الخصوص بزراعة القطن وكذلك الذرة والبن والخضر وأشجار الفاكهة التى كان الجنود المصريون يقومون بزراعتها فى بادىء الأمر أمام معسكراتهم ، ثم انتشرت زراعتها فيما بعد فى بعض البلدان الأفريقية ، مثل دنقلة وبربر وبربرة وسواكن ومصوع .

وتناولت كذلك فى الفصل التاسع موضوع السكة الحديد السودانية ، فتحدثت عن اهمية انشاء سكة حديد السودان وتحدثت عن البعثات التى ارسلتها مصر الى السودان ، لكشف المناطق والطرق التى يصلح مد السكة الحديد من خلالها ، زيادة على ذلك فاننى تحدثت عن بناء المحطات وشراء المهمات والمعدات ، واقامة الجسور ، تكلمت ايضا عن خطوط التلغراف والبريد ، الذين انتشرا على نطاق واسع فى معظم البلدان السودانية والأفريقية

وتناولت ايضا فى الفصل العاشر ، علاقة مصر بالحبشة قبل المعارك الحربية التىدارت رحاها بين الدولتين ثم تحدثت بعد ذلك عن تطور العلاقات السلمية فيما بعد الحرب ، ونشرت عددا من الخرائط العسكرية والتقارير الهامة الخاصـــة بهذه المعـــارك .

وتناولت فى الفصل الحادى عشر علاقة مصر بالقوى الأجنبية وبصفة خاصة علاقاتها مع بريطانيا وايطاليا وفرنسا ، وأوضحت مدى ما وصلت اليه هذه العلاقات من مساوىء بين مصر وبين غيرها من هذه الدول ، نتيجة استيلاء هذه الدول على املاك مصر فى أفريقيا الشرقية .

وتناولت فى الفصل الثانى عشر ، الكشوف الجغرافية المصرية فى افريقيا، سواء اكانت فى غرب وشرق السودان ، أو فى محيرية بحر الغزال أم فى المديرية الاستوائية ، أم فى أفريقيا الشرقية ، فقد أعدت مصر عددا كبيرا من البعثات الكشفية التى ترأسها عدد من الضـــباط المصريين والأجانب مثل الكولونيل كولستون وبردى وبروت وارنست لينان دى بلفون ، وماكيلوب والدكتور شوينفرث وشايولونج ، وكان من الضباط المصريين الذين اشتركو، فى هذه البعثات الكشفية اللواء محمد رؤف باشا والقائمام محمد نادى ، ومحمد مختار وابراهيم فوزى والضابط احمد حمدى وغيرهم كثيرون .

وتناولت فى الفصل الثالث عشر نظام الحكم المصرى فى السودان ، وفى بعض البلدان الأفريقية الأخرى ، سواء اكان ذلك فى مجال التنظيم والادارة، أم فى مجال الامن ، والتعليم والصحة والقضاء وتعتبر هذه الأنظمة جديدة بالنسبة للبلاد الافريقية ، التى لم تشـــهد شعوبها من قبل نظما مثل هذه الأنظمة المتقدمـــة .

ثالثا ــ الباب الثالث :

ويتضمن حجم الوجود المصرى فى الفترة ما بين ١٨٧٩ ــ ١٨٩٩ ، فمن المعروف أن حجم الوجود المصرى فى افريقيا فى هذه الفترة ظل كما هو وخاصة بعد اقالة اسماعيل وحتى عام ١٨٨١ م الذى اندلعت فيه الثورة المهدية فى السودان ، وتعتبر هذه الثورة بداية النهاية للوجود المصرى فى السودان خاصة وافريقيا عامة ، فمنذ بدات هذه الثورة بدأ الوجود المصرى معها فى التناقص فى كل من السودان وافريقيا الشرقية ويرجع ذلك الى ضعف القوات المسلحة المصرية ، وخاصة بعد خوضها عدة حروب ضد القوات الحبشية ، كما يرجع أيضا الى الأحداث الداخلية فى مصر ، وما اعقبها من تدخل بريطانى سافر فى كافة شئونها الداخلية والخارجية .

وأدى الأمر ببريطانيا الى ان تطلب من مصر ضرورة اخلاء السودان وافريقيا الشرقية بحجة أن القوات المصرية غير قادرة على مجابهة قوات الدراويش ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن هذه البلاد لا تعود على مصر بالنفع ، بقدر ما تعود على خزانتها بالخسارة والاضرار .

وما أن حل عام ١٨٨٥ م حتى كانت مصر قد أجبرت على الانسحاب من جميع اقاليمها فى افريقيا ولم يبق لها الا سواكن على البحر الأحمر وحلفا فى جنوب مصر ، واستمر هذا الوضع حتى عام ١٨٩٦ ، ففى هذا العام قررت مصر ومعها بريطانيا استعادة السودان ، وخاصة بعد ان تم لبريطانيا احتلال مصر ، وبعد أن تم لها التدخل الكامل فى كافة شئونها .

وفى عام ١٨٩٦ م بدأ زحف القوات المصرية الكثيرة العدد ومعها القلة القليلة من القوات البريطانية وذلك لاستعادة السودان وقد تمكنت هذه ــ القوات من تحقيق اهدافها كاملة وتمكنت من القضاء نهائيا عام ١٨٩٩ م على نفوذ المهديين وعندئذ حكم السودان حكما ثنائيا أى بين مصر وبريطانيا وبهذا الاسترداد أو الفتح الثانى للسودان اصبح حجم الوجود المصرى فى افريقيا قاصرا على السودان فقط .

ولقد قسمت الباب الثالث الى خمسة فصول الأول منه يحمل رقم الفصل الرابع عشر ، وتناولت فيه الثروة البشرية والرق وحاولت أن ابرز فيه دور مصر فى مقاومة تجارة الرقيق ، والخطوات التى اتخذتها من اجل ذلك .

وتناولت فى الفصل الخامس عشر موضوع سكة حديد السودان والدوافع التى دفعت مصر الىمواصلة العمل فى انجازها سواء اكان ذلك من اسوان الى الخرطوم أم من سواكن الى بربر وتحدثت أيضا فى هذا الفصل عن تطوير مراحل العمل فى مد هذه السكة الحديدية .

وتناولت فى الفصل السادس عشر علاقة مصر ببعض الدول الأوربية مثل بريطانيا التى كانت فى هذا الوقت صاحبة اليد الطولى والنفوذ المطلق فى مصر ، عن غيرها من الدول الأوربية الاخرى .

وتناولت فى الفصل السابع عشر نظام الحكم المصرى فى السودان سواء اكان ذلك فى مجال التنظيم والادارة أم القضاء أم فى مجال التشريعات الدستورية والأمن والصحة والتعليم .

وأود أن أكون قد وفقت فى تحقيق الجديد واضافة مادة جديدة وأصيلة تساعد على فهم هذا الدور الحضارى الكبير الذى قام به اجدادنا فى القارة الافريقية .

ورغم أن مجهودى لايمثل الا لبنة صـــغيرة فى ميدان المعارف التاريخية ، فاننى ارجو أن يكون هذا البحث اضافة جديدة للأبحاث وللمكتبة العربية .

واننى لأنتهز هذه الفرصة كى أتقدم بجزيل الشكر والتقدير الى السيد الأستاذ الدكتور / جلال الدين مصطفى يحيى ، الذى كان لرايه الصائب وتوجيهاته العلمية السديدة اكبر الأثر فى انجاز هذه الدراسة ، كما اشكر السيد الدكتور طلعت أبو العزم على تعاونه معى . وكذلك اشكر الاستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوى والاستاذ الدكتور عمر عبد العزيز .

والله ولى التوفيـــق

دكتور

(السيد يوسف نصر)